

واقع المخطوطات في الدول العربية ودور الجامعات في الحفاظ عليها

عبد العزيز ناصري

جامعة غرداية

لبذة عن المخطوطات العربية:
إن العالم العربي يزخر بكثير من المخطوطات المولفة في شتى العلوم والفنون، ولكن أغلبها لا توجد في مكتباته، وإنما هي منتشرة في كافة أنحاء العالم والكثير منها في المتاحف والمكتبات الغربية، وهذا نظراً لعدة عوامل، من بينها عدم استقرار العالم العربي في شتى النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية... ووقوعه لفترة طويلة في قبضة الاستعمار، ومالجه هذا الأخير من نفائس المخطوطات أثناء احتلاله للعالم العربي، وعدم معرفة قيمة المخطوط إلا بعد فوات الأوان في العصر الحديث، ولم يهتم العرب بدراسة المخطوط إلا مع بداية القرن التاسع عشر، ولكن الغرب اهتم به منذ فترة طويلة وصرف أموالاً ووسائل من أجل الاعتراف به، وظهر عنده علم خاص بدراسة الشكل المادي للمخطوط، ودرس اللغة العربية وبعث من يهتم بهذا التراث إلى البلاد العربية ويحفظه وينقله إلى لغته، وهذا ما نراه في عمل المستشرقين، فكثيراً منهم من حقق المخطوطات العربية وترجمها إلى لغة بلده قبل أن يكتشفها العرب، ولا ينكر جهدهم في تحقيق المخطوطات العربية والاعتراف بها منذ زمن بعيد، وهذا نظراً لأن الحضارة العربية حضارة عريقة ويعود لها الفضل في اكتشاف الكثير من العلوم، فالعلماء ابن سينا (ت429هـ) وهو من أشهر العلماء والمفكرين العرب له إضافات كبيرة في علم الطب والفلسفة وكتابه الشهير (القانون في الطب) ترجم إلى عدة لغات أوربية، وكان للحوارزمي فضل كبير في علم الرياضيات وكذلك حابر بن حيان والذي سمي علم الجبر باسمه، وهكذا أسهم العرب إسهاماً كبيراً في التقدم العلمي والنهضة الحضارية في أوروبا في شتى العلوم مثل الرياضيات والفلك والطب والتاريخ والأدب والجغرافيا، وكانت المؤلفات العربية البارزة من المواد الأساسية المقررة على طلبة الجامعات الأوربية حتى منتصف القرن السابع عشر الميلادي مثل كتاب القانون في الطب لابن سينا،⁽¹⁾ وكان للعلماء العرب أثر كبير في تقدم الغرب وكانوا جسراً يربط الأمة العربية بماضيها المتقدم ومستقبلها التي تسعى فيه للتقدم والرفق، وهذا بفضل ازدهار هذه الحضارة في القدم ووصولها إلى متاحف أوروبا مثل إسبانيا وإيطاليا، وسيطرتها على معظم أنحاء العالم.

¹ - المحاسني، سماء زكي، "دراسات في المخطوطات العربية" مكتبة الملك فهد الوطنية، طبعة 1999م، الرياض، ص 19

عوامل تقدم أوروبا في تحقيق المخطوطات:

يرجع تقدم الغرب في تحقيق التراث ونشره على العالم العربي إلى إلقاء سيطرة الكنيسة على الحكم وظهور ما يسمى بالثورة الصناعية وما نتج عنها من تقدم في عدة وسائل من ظهور الطباعة والآلات الحديثة التي تحتاجها أوروبا في الحفاظ على المخطوط والاعتناء به من الصباغ، فقد ظهرت الطبعة في القرن الخامس عشر الميلادي على يد العالم الألماني جوتنبرج (Gutenberg)، (م 1397-1468)، وكان هذا الاكتشاف إنجازاً حضارياً كبيراً ورغم السرية التي أحاط بها جوتنبرج اختراعه، إلا أن الطباعة انتشرت انتشاراً سريعاً في بلاد الأوروبية الأخرى؛ حيث ظهرت الطباعة في روما سنة 1465م، وفي البندقية سنة 1469م، وفي باريس سنة 1470م، وفي برشلونة سنة 1471م، وفي إنجلترا سنة 1474م، وفي عام 1486م عُرفت الطباعة بالحروف العربية، وطبع في عام 1505م في مدينة غرناطة كتابان بالعربية هما: وسائل تعلم قراءة اللغة العربية ومعرفتها، ومعجم عربي بحروف قشتالية، بتوجيه من الملك فرديناند وزوجته إيزابيلا، ثم انتقلت الطباعة إلى العالم الإسلامي وكانت أول دولة عرفتها هي تركيا عند دخول المهاجرين اليهود إلى الدولة العثمانية فطبعت التوراة مع تفسيرها في عام 1494م، وانتظر الأتراك صدور الفتوى من السلطان بالطباعة، ثم صدرت الفتوى بطباعة الكتب الأخرى دون المصحف الشريف، ثم صدر الأمر بطباعة المصحف، وانتقلت الطباعة من تركيا إلى البلدان العربية وكانت أول دولة عربية عرفت الطباعة هي لبنان، وهذا يعود إلى سنة (1610م)، عندما أنشئت المطبعة المارونية على يد رهبان دير قزوحية، وكان أول كتاب يطبع فيها هو كتاب (سفر التلاميذ)، ثم انتقلت إلى سوريا ثم العراق، وبعدها إلى مصر بعد حملة نابليون إليها سنة (1798م)، وتأسس مطبعة بولاق الشهيرة.⁽¹⁾

وكانت الطباعة في الدول العربية في بداية الأمر عبارة عن حملة تبشيرية حاصلة، واعتم لها الصاري العرب في لبنان، ولم تطبع حينها الكتب الإسلامية نظراً لجدّة هذا العمل على العالم العربي، وكان ينظر لها بالنظر عارة عن آلة لتوزيع كتب الأناجيل والتوراة، ولابد من صدور فتوى بجواز طباعة الكتب الإسلامية خصوصاً المصحف الشريف وكتب الحديث، ثم سرعان ما عرف العلماء قيمتها بعد طباعة آلاف الكتب العربية في أوروبا على يد المستشرقين، ثم بعد ذلك انتشرت الطباعة في كافة أنحاء الدول العربية.

ويقال إن الطباعة عندما ظهرت في أوروبا لأول مرة كان الهدف منها تكثير عدد النسخ من الكتاب الواحد لتسهيل قراءته لعدد كبير من الناس، إلا أن هذا العمل قد ظهر عند العرب منذ زمن بعيد، فقد كانت توضع للنسخة الواحدة من المخطوط عدة نسخ، خصوصاً إذا كان هذا الكتاب من الكتب المهمة في علم من العلوم، فعلى سبيل المثال يذكر الجاحظ أن يحيى بن خالد البرمكي لم يكن في خزانة كتبه كتاب إلا وله ثلاث

¹ - موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف <http://www.qurancomplex.org>

نسخ، ويذكر المقرئ أنه كان في مائة العريف بالله الفاطمي ثلاثون نسخة من كتاب العين للتحليل من أحمد الفراهيدي، ومائة نسخة من المصحف لابن دريد، وما يزيد من ألف نسخة من تاريخ الطبري.⁽¹⁾ والدليل على هذا، أن بعض المخطوطات المهمة في الحضارة العربية لا تزال مكتبة في العالم من وجودها في الشرق والغرب، مثل بعض التفاسير، وكتب اللغة مثل لسان العرب وغيرها، وكانت عملية النسخ والساعة مهمة منتشرة في العصور القديمة، وكان للنساج شأن في تأليف الكتب، وكانت هذه المهنة بمثابة المهنة كان يكون حسن الخط، ولديه علم حتى يستطيع نسخ الكتاب إلا ما شأ منهم، وكانت هذه المهنة منتشرة المطابع في عصرنا الحاضر، ولا تخلو مدينة من المدن الكبرى من وجودها مثل بغداد ودمشق والقاهرة والأندلس وغيرها من الأمصار قديماً.

المخطوطات العربية في العالم:

أشرنا سابقاً إلى أن العالم العربي يزخر على كثير من المخطوطات القيمة وهو مالا يتوفر لأمة من الأمم، قال الفيلسوف المتوفى سنة 821هـ: وأعلم أن الكتب المصنفة أكثر من أن تحصى، وأجل من أن تحصر، لا سيما الكتب المصنفة في الملة الإسلامية فإنها لم تصنف مثلها في ملة من الملل، ولا قام بنظورها أمة من الأمم⁽²⁾، ولكن أغلب هذه المخطوطات ليست موحودة على أراضيه، ومسلوبة منه بطريقة شرعية وغير شرعية، فقد أشار الدكتور أمين فؤاد في كتابه (الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات) إلى أن حجم المخطوطات العربية في مكتبات العالم حسب تقدير علماء الاختصاص، بأنه هناك حوالي ثلاثة ملايين مخطوط منتشرة في كافة أنحاء العالم، منها نصف مليون مخطوط من المخطوطات القيمة.⁽³⁾ وهذه المخطوطات منتشرة في كافة أنحاء العالم تقريباً، وهي ميراث أجيال كثيرة من الأمة العربية، وأخذت منها في ظرف من الظروف تعرضت له أثناء الاستعمار، وغيرها من الوسائل التي سمحت بخروج هذه المخطوطات من العالم الإسلامي، وتعتبر اسطنبول والأناضول من أهم المناطق في العالم الموحودة بها أكثر المخطوطات، فقد بلغت نسبة المخطوطات بها أكثر من 250 ألف مخطوط.⁽⁴⁾

وهذا نظراً لكون تركيا من الدول التي حكمت العالم العربي والإسلامي، وسيطرت على كافة حيواتها من الشرق إلى الغرب ومن بينها المخطوطات، ونحن لا نذكر دور الدولة العثمانية في حماية العالم العربي، ولكن هذه الدولة دخلها في آخر عهدها كثير من الضعف بسبب فساد الحكام ونظام الدولة، وسيطرة الاستعمار على أغلب ممتلكاتها، وظهور ما يسمى بالدولة التركية الحديثة برعاية اليهودي التركي كمال أتاتورك، وكوه

¹ - الطحاوي: محمد بن عبد الله، "مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي"، مطبعة المدني، الطبعة الأولى 1984م، القاهرة، ص 30.

² - الفيلسوف أبو العباس أحمد بن علي، "صحيح الأعشى وصناعة الإنشاء"، دار الكتب المصرية، طبعة 1922، القاهرة، ج 1، ص 467.

³ - أمين فؤاد، "الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات"، دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى 1997م، القاهرة، ج 2، ص 509.

⁴ - المرجع السابق، ج 2، ص 511.

لكل ما هو عربي، وأصول حروف اللغة التركية من العربية إلى اللاتينية، ووقفت حركة التحقيق والاعتناء بالمخطوطات العربية في عهده، ولم يظهر الاعتناء بها إلا مؤخراً بعد إتمام حكمه، وسيطرة من لهم شغوة على الأمة الإسلامية في تركيا، رغم أن هذه المخطوطات مأسودة من الدول العربية التي حكمتها تركيا مثل المخطوطات الخزائرية والمصرية والسورية والعراقية وغيرها، ويوجد في مكتبة اسطنبول بعض المخطوطات النادرة والتي يرجع تاريخها إلى العهد الأموي والعباسي، لأن اسطنبول كانت عاصمة الخلافة، ونقل إليها كل ما هو نفيس من المخطوطات العربية، وهكذا أصبحت تركيا من أكثر الدول في العالم التي لها عدد كبير من المخطوطات العربية، وهذا ما جعل بعض المستشرقين أمثال رينش يفهم في تركيا من أجل التعرف على أكثر عدد من المخطوطات ودراستها، وكذلك هناك مخطوطات عربية في إيران أيضاً، لكونها كانت تابعة للدول العربية والخلافة الإسلامية فترة طويلة من الزمن.

أما أوروبا فهناك كثير من المخطوطات العربية موجودة في كل دولة من دول الاتحاد الأوروبي تقريباً، فهناك مخطوطات في باريس وأغليها في المتحف الفرنسي، ولا يغني دور فرنسا الاستعماري لكثير من الدول العربية مثل المغرب العربي وسوريا ولبنان وحمل ناهليون على مصر مما أتاح لفرنسا سرقة معظم المخطوطات العربية، وكذلك إسبانيا فهي الوريث الشرعي لحضارة الأندلس، فقد كانت هناك حضارة رائدة في جميع المجالات، وبعد طرد المسلمين منها وسيطرة النصارى عليها في الحروب الصليبية استولوا على كثير من المخطوطات الإسلامية في هذا البلد، ويقال إن المخطوطات الموجودة في إسبانيا غير مسموح لأي مسلم الاطلاع عليها، بخلاف المخطوطات الموجودة في غيرها من البلدان الأوروبية فإنه يسمح بتصويرها ونسخها وتحفيقها.

وهناك مخطوطات معتبرة في برلين وبريطانيا وبلجيكا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية والهند، ومعظم هذه المخطوطات مأخوذة بطريقة غير شرعية من الدول العربية والإسلامية.

جهود المستشرقين في الحفاظ على المخطوطات العربية:

قبل الخوض في عناية المستشرقين بالمخطوطات العربية لابد أن نشير إلى أن كلمة مستشرق هي عبارة عن عالم غربي يهتم بالدراسات الشرقية، والمستشرقون جماعة من علماء الغرب، وأغلبهم من الرهبان، مع اختلاف ديانتهم فمنهم اليهود والنصارى والملاحدون - وهذا أكبر اختلاف بيننا وبينهم - ومنهم من أسلم فيما بعد،⁽¹⁾ وهناك تعاريف كثيرة للاستشراق والمستشرقين، ولكن هذا تعريف مختصر نكتفي به نظراً لخصوصية هذا البحث، ومن أراد فعليه بكتاب المستشرقون لنحيب عقيقي.⁽²⁾

1 - أي أسلم بعد تحفيقه لعدد كبير من كتب التراث، ووصله إلى حقائق عن الدين الإسلامي.
2 - كتاب ضخم عن المستشرقين في ثلاثة أجزاء، طبع عدة مرات، انظر: العقيقي: نجيب، "المستشرقون"، دار المعارف، الطبعة الرابعة.

والعلماء مختلفون اختلافا شديدا في الإشادة بهم، فمنهم من أنكر دورهم وجرحهم، ومنهم من أنشأ عليهم ومدحهم، وفي الحقيقة أن لهم دورا كبيرا في تحقيق المخطوطات ونشرها لا ينكره منصف في تحقيق المخطوطات والحفاظ عليها، وجل علمائنا يكون لهم هذا الاحترام والتقدير وفي جهودهم في الحفاظ على تراثنا، وإن كنا نحن أولى بالمحافظة عليه من غيرنا، ولكن هناك عوامل جعلتنا لا نعرف قيمته إلا مؤخراً، ولولا هذا العمل الذي قام به المستشرقون لضاع معظم تراثنا، فأجدادنا تركوا لنا هذه المخطوطات القيمة منتشرة في المساجد والزوايا لكي نستفيد منها نحن والأجيال اللاحقة وهي في نظرهم وقف لله تعالى، ولكنها تعرضت للحرق وللعبث من طرف أشخاص لا يعرفون قيمتها، فكثيراً من حُرّاس المساجد والقائمين عليها كان يجعلها وقوداً للنار بدل الخطب، ناهيك إلى ما تتعرض له من العومل الطبيعية التي تساهم في اتلافها بشئى الوسائل،⁽¹⁾ وقد أخذ المستشرقون وأعاونهم هذه المخطوطات وحافظوا عليها بشئى الوسائل المادية والمعنوية بالإضافة إلى دراستها وتحقيقها، مما جعلها محفوظة في مكتبهم إلى يومنا هذا، والعدد الذي أخذوه من المخطوطات العربية لا يحصى، فهناك ربع مليون مخطوط في المكتبات الأوروبية، فمثلاً يقال إن فهراس المخطوطات العربية في مكتبة برلين أكثر من عشر مجلدات ضخمة، وإن هناك مستشرقاً أهدى إلى مكتبة جامعته أكثر من 6000 مخطوط،⁽²⁾ فهذا شخص واحد فقط أهدى هذا العدد فكيف بالبقية؟

ودفعهم إلى الاعتناء بالمخطوطات العربية عدة عوامل، من بينها ظهور الثورة الصناعية في أوروبا وما نتج عنها من ازدهار في الحياة السياسية والاجتماعية مثل اكتشاف الطباعة كما ذكرنا سابقاً، ووقوع العالم العربي في قبضة الاستعمار، وكثيراً من المستشرقين جاء إلى البلاد العربية مع الاستعمار مثل حملة نابليون على مصر، وهناك من دعوا إلى البلاد العربية للتدريس فيها مثل ما فعله محمد علي عندما استدعى جماعة من المستشرقين للتدريس في المدارس والمعاهد المصرية، للاستفادة منهم في شئى العلوم، ومحاولة نقل ما عندهم من ثقافة إلى العالم العربي، والعكس صحيح فهناك بعض المستشرقين دعوا بعض العلماء العرب للتدريس في جامعاتهم، والاستفادة منهم في تحقيق المخطوطات ونشرها، ومنهم الشيخ حسن العدل الذي كان مدرساً للغة العربية في المدرسة الشرقية ببرلين، والشيخ محمد عباد الجوهري الذي دعي إلى التدريس بجامعة ليننغراد بروسيا، والشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان الذي استعان به كثير من المستشرقين في تحقيق المخطوطات العربية أمثال المستشرق الأمريكي لويس نيكول، وغيرهم كثير.⁽³⁾

ومن دوافعهم أيضاً تقدم الحضارة العربية على غيرها من الحضارات في القدم، فقد أمدت إلى الصين شرقاً ووصلت إلى متاخم فرنسا غرباً، فأخذ الغرب هذه المخطوطات واعتنوا بها ودرسوها واستفادوا منها في غرضتهم العلمية، ووصل اهتمام المستشرقين بالتراث العربي إلى فتح تخصصات في جامعتهم تهتم بدراسة الآداب

¹ - المرجع السابق، ج 3، ص 611

² - دياب: عبد المجيد، "تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره" دار المعارف، الطبعة الثانية 1993م، القاهرة، ص 187

³ - دياب: عبد المجيد، "تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره"، مصدر سابق، ص 184

الشرفية، واللغة العربية بصفة خاصة ودراسة العلوم العربية والآثار الفكرية كما في جامعة السربون بفرنسا وإكسفورد بالإنجلترا، واستعانوا بالعلماء العرب في تحرير النصوص ونشرها، مثل استحداثهم لوظيفة (قارئ النصوص) بجانب الأساتذة والمحاضرين في الجامعات⁽¹⁾، ثم أنتقلت هذه الفكرة إلى العالم العربي، وظهر في الجامعات العربية علم المخطوط، وعلم الاستشراق ودراسة المستشرقين، وأصبحت تمنح الشهادات العليا في تحقيق المخطوطات بعدما كانت حكراً على دور النشر والتجار.

ورغم العمل الذي قام به المستشرقون في الحفاظ على المخطوطات العربية إلا أننا نجد الكثير منها قد ضاع، فلو رجعنا إلى (الفهرست لابن النديم)، وكتاب (كشف الظنون) لوجدنا الكثير من المؤلفات القيمة قد ضاعت، وهذا بسبب عدة عوامل من بينها الحروب التي توالى على العالم العربي، وما فعله هولاء في بغداد خير شاهد على هذا.

أما أشهر المستشرقين الذين قدموا خدمة جليلة للتراث العربي، نذكر على سبيل المثال كارل بروكلمان (1868 - 1956م) المستشرق الألماني الذي ألف كتابه الشهير (تاريخ الأدب العربي) الذي يعد كتاباً مهماً في ذكر المخطوطات وأماكن وجودها في البلدان العربية أو الأوربية، وهو أول من ألف في هذا الفن، والكتاب بالألمانية ثم ترجم إلى العربية، ثم جاء بعده العالم الألماني من أصل تركي فؤاد سزجين وكتابته العظيم (تاريخ التراث العربي) وهو بالألمانية أيضاً، واعتمد فيه على المستشرق بروكلمان وزاد عليه، وهو من تلامذة المستشرق الألماني هلموت ريتير، وكان يُدرس التاريخ في جامعة فرانكفورت.⁽²⁾

وكذلك المستشرق الإنجليزي وليام رايت الذي نشر الكامل للمبرد في سنة 1864م، والمستشرق الألماني جوستاف يان الذي نشر المفصل لابن يعيش سنة 1882م، وكان متمكناً في النحو إلى درجة أنه ترجمه الكتاب لسيويه إلى اللغة الألمانية 1895م والمستشرق الفرنسي دير نبورج الذي نشر الكتاب لسيويه في باريس في مجلدين، أولهما سنة 1881م والثاني سنة 1889م، والمستشرق الألماني قستفيلد الذي نشر سيرة ابن هشام سنة 1899م.⁽³⁾

وللتذكير فإن المستشرقين الذي عنوا بدراسة التراث العربي أكثر من هذا بكثير ولا يتسع المجال لذكرهم في هذا البحث خشية الخروج عن الموضوع، أما المنهج في دراستهم فكان منهج علمي رصين، وهذا المنهج ظهر في أوروبا وطبقه المستشرقون على دراسة التراث العربي، وساعدهم على الدراسة عدة أشياء من بينها إتقانهم لعدة لغات، فوجد المستشرق يجيد أكثر من خمس لغات على الأقل، ومنهم من يتقن أكثر وقد وصل فيهم من يتقن خمسة عشر لغة ولهجة، وكذلك سعة ثقافتهم وإطلاعهم، فكان المستشرق يتنقل بين الدول والمكتبات العالمية للبحث عن المخطوطات وجمعها، وساعدهم في ذلك توفير الوسائل المادية والمعنوية، وكان

¹ - التوبجي: محمد، " المنهاج في تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات " دار عالم الكتب، دمشق، ص 20

² - دهاب: عبد المجيد، "تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره" مصدر سابق، ص 190

³ - عبد التواب: رمضان، "منهاج تحقيق التراث بين القديم والحديث" مطبعة المدني، الطبعة الأولى 1985م، القاهرة، ص 57

معظمهم متخصصا في فن معين، فهذا في التاريخ وذاك في الفلسفة... وكانت عندهم ميزة الصبر في التحقيق، فمنهم من بقي في تحقيق مخطوطة أكثر من عشرين سنة ومنهم من أفنى عمره في التحقيق ومات ولم يكمل الدراسة، وكان المستشرق يدخل إلى مكتبة المخطوطة يشتغل في اليوم أكثر من ستة عشر ساعة كاملة في التحقيق بدون كلل أو ملل.⁽¹⁾

فهذه نبذة عن جهود المستشرقين في دراسة التراث العربي ونشره، وقد اعتنوا بهذا التراث خدمة لحضارتهم، ولولم يجدوا فيه ضالتهم ماصرفوا له كل هذا الاعتناء من جمع المخطوطات العربية وصيانتها وفهرستها والتعريف بها ثم دراستها وتحقيقها ونشرها، وقد أنشأوا لذلك المؤسسات الحكومية والخاصة، وفتحوا تخصصات في الجامعة لدراسة التراث العربي، وتضافرت جهودهم من مختلف جنسياتهم على نشر الموسوعات التراثية، وعقد المؤتمرات العلمية، وإصدار المجلات والدوريات ودوائر المعارف، وتوثيق العلاقات بالعلماء العرب في كل مكان.

موقف الجامعات العربية من نشر التراث:

إن الدول العربية تزخر بمخطوطات كثيرة لاحصر لها، وللأسف الشديد أغلب المخطوطات القيمة موجودة في مكتبات الدول الغربية، وهذا نظرا لتقدمهم علينا في شتى المجالات، وقيام النهضة العلمية عندهم قبلنا، وهم من سارعوا إلى الكشف عن هذه المخطوطات والاعتناء بها قبلنا، ونحن كنا نعيش في سبات عميق عنها، وقد أشرت سابقاً إلى هذا الكلام، فالغرب عندما أخذ المخطوطات جعل لها كراسي للدراسة وفتح تخصصات كثيرة تخدمها، ووضع المناهج العلمية الحديثة لدراساتها سواء في جامعته، أو مكباته الوطنية، وكان أول من ساهم في الحفاظ على المخطوط في أوروبا هي الجامعات الغربية، ثم انتقلت هذه الفكرة إلى الدول العربية، يقول الكاتب اللبناني نجيب العقيقي في نشأة جامعة السوربون في فرنسا: بدأت بحبة الأب روبر دي سريون، وضمها نابليون إلى جامعة باريس 1808م، وقد عني فيها معهد الآداب بتاريخ الفن الإسلامي المغربي، وتاريخ الشعوب الشرقية ودراسات في اللغة والحضارة العربية، ثم ألحق بمعهد الآداب معهد الدراسات الإسلامية، وكانت جامعة ليون تدرس اللغة العربية والآثار المصرية والتمدين الإسلامي، ولم تقتصر فرنسا في تعليم اللغات السامية والحضارة العربية على مدارسها ومعاهدها وجامعاتها في فرنسا، بل أنشئت مثيلاتها في الشرق الأدنى وشمال إفريقيا وغيرها، وزودت معظمها بالمكتبات والمطابع والعلماء والمجلات، منها معهد مصر الذي أسسه نابليون سنة 1798م، ثم المعهد الفرنسي في دمشق سنة 1922م، ثم معهد قرطاج في تونس سنة 1895م، ثم مدرسة الآداب العالية في الجزائر الذي أسسها فاري سنة 1881م وتحولت فيما بعد إلى جامعة الجزائر سنة 1909م، وتعنى باللغة العربية العصرية والتراث الإسلامي والتاريخ.

¹ - انظر: العقيقي: نجيب، "المستشرقون"، مصدر سابق، ج3، ص 601

ثم أدخلت فرنسا سنة 1957م على برامجها في التعليم الثانوي، مواد جديدة عن الحضارات الكبرى ونظور الشرق التاريخي، فأصاب العرب والإسلام منها حظ موفور.⁽¹⁾ فهذه فقط دولة من دول الغرب وهي فرنسا رأينا كيف اهتمت بالمخطوطات وقامت بدراساتها داخل

جامعاتها، وإنشاء فروع لها في مستعمراتها، ناهيك عن بقية الدول الغربية مثل بريطانيا وألمانيا وإسبانيا... وفعلاً ارتبطت حركة التحقيق والنشر عند المستشرقين بالجامعات والمعاهد العلمية ارتباطاً وثيقاً، مما جعل دراساتهم للمخطوطات تقوم على منهج علمي رصين، منذ النهضة الأوروبية إلى يومنا هذا، وكانت الجامعات عندهم تحتوي على مكتبات ضخمة من التراث، وظلت هذه المكتبات الجامعية تحتفظ بهذا التراث إلى أن ظهرت فكرة المكتبة الوطنية، فانتقلت مسؤولية الحفاظ على تراث الأمة من المكتبة الجامعية إلى مكتبة واحدة تعد أم المكتبات في أي دولة من الدول وهي المكتبة الوطنية⁽²⁾

أما الجامعات العربية فتحقيق المخطوطات يكاد يغيب في أغلبها، وفي بعضها محصور على الدراسات العليا فقط، وتُعطى درجة الماجستير والدكتوراه على تحقيق مخطوط من المخطوطات وهذا نادر لعدم توفر الظروف التي تساعد الطلبة على اختيار هذا العمل، لأن الجامعات التي تسمح للطلبة باختيار تحقيق المخطوط، لا تساعده في الحصول على هذا المخطوط أو النسخ المتوفرة له، وكذلك في أغلب التخصصات التي تدرس في الجامعات العربية، لا يدرس الطالب التخصصات الخاصة بعلم المخطوط كمناهج التحقيق وكيفية قراءة المخطوط وأنواع المخطوط، وكيفية الاستفادة من الفهارس والمراجع التي تعنى بأماكن المخطوطات وتكاليف السفر للبحث عن المخطوط، وإن حقق الطالب مخطوطاً ولو كان قيماً لا تساعده الجامعة في نشره، بل يذهب لدور النشر التجارية ويدفع أثمان باهضة لنشره، وهناك مادة (مناهج البحث) والتي تدرس لطلاب الجامعات العربية، ولكنها لا تهتم بالمخطوط، وإنما بالبحث العلمي العام فقط، وقد أقرت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في 13 ديسمبر سنة 1971م توصية للدول العربية بشأن إدخال التحقيق العلمي للمخطوط ضمن المنهج الدراسي في مرحلة التعليم الجامعي ليسانس⁽³⁾، ولكن هذه التعليم لم تطبق في كل الجامعات العربية، مما يؤدي إلى عزوف الطلاب في الدراسات العليا وغيرها في الجامعات العربية من اختيار هذا الاتجاه (تحقيق المخطوط)، وبعض الجامعات العربية لاتسمح للطلاب في جميع مراحل الدراسة من الليسانس حتى الدكتوراه باختيار طريق تحقيق المخطوط في البحث العلمي، وبعضها لاتوجد بها مكتبة للمخطوطات أصلاً، ولا تهتم بهذا الجانب من اقتناء المخطوطات ودراستها ونشرها، هذا بالنسبة للطلبة، أما بالنسبة للأساتذة الباحثين، فقد قبلت بعض الجامعات العربية منح درجة الماجستير والدكتوراه للطلاب في تحقيق المخطوط، ولكن لا تمنح الترقية

¹ - أنظر: العقبلي: نجيب، "المستشرقون"، مصدر سابق، ج 1، ص 141 بتصرف

² - الخورجي: عبد الستار، "المخطوطات والتراث العربي" الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى 2002م، القاهرة، ص 58

³ - دهاب: عبد المجيد، "تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره"، مصدر سابق، ص 308

العلمية للأستاذ عندما يقوم بتحقيق مخطوط، وهذا يدل على عدم إعطاء أهمية لتحقيق المخطوطات في العالم العربي، ونحن نرى كبار العلماء في الغرب من محققى المخطوطات مثل المستشرقين وغيرهم. وبظهور فكرة المكتبة الوطنية في العصر الحديث وإسناد مهمة جمع المخطوطات والحفاظ عليها لها، نجد بعض الدول العربية لم تعرف فكرة المكتبة الوطنية إلى اليوم! وفي بعضها نجد المكتبة الجامعية أكبر بكثير من المكتبة الوطنية من حيث الحجم والميزانية والعمال، فمثلاً مكتبة جامعة الرياض أكبر بكثير من المكتبة الوطنية في المملكة العربية السعودية، وهذا راجع لعدة عوامل، من بينها أن فكرة المكتبة الوطنية ظهرت حديثاً، والمكتبة الجامعية أقدم بكثير منها، والتبعية تختلف، فالمكتبة الوطنية تتبع وزارة الثقافة في الدولة ومهمتها تجميع الإنتاج الفكري للدولة قديمه وحديثه وتيسيره للأجيال للاستفادة منه، والمكتبة الجامعية تتبع وزارة التعليم العالي ومهمتها خدمة برامج التعليم العالي في جميع المراحل (الليسانس، الماجستير، الدكتوراه) ودراسة كتب التراث

دراسة علمية ونشرها، وليس مهمتها جمع المخطوط فقط⁽¹⁾. فدور الجامعة في الحفاظ على المخطوطات محدود بعد ظهور المكتبة الوطنية، ولكن لا ينبغي أن تكون علاقة تكامل بين الجامعة والمكتبة الوطنية، وهذا ما نجده في الغرب بعد نقل المخطوطات من مكتبات الجامعات إلى المكتبة الوطنية، أصبحت مكتبة الجامعة تحتفظ بنسخ مصورة من تلك المخطوطات، وتحاول مساعدة المكتبة الوطنية بنشر المخطوطات وتحقيقها وحث الطلاب والباحثين على ذلك، وجلب مزيد من التراث بسبب العلاقة التي تقيمها الجامعة بغيرها من الجامعات ومراكز التراث في الشرق والغرب، وتوعية الهيئات والأفراد بتسليم ما عندهم من مخطوط لهذه المكتبة بطريق الإهداء أو البيع، على أساس أن ذلك واجب وطني، وأن المخطوط ميراث أمة قبل أن يكون ميراث فرد، وكونه في مكتبة الدولة أصون من أن يكون عند الفرد ويعم انتفاعه الجميع⁽²⁾.

إن من مهمة الجامعات العربية بالدرجة الأولى تحقيق ونشر التراث، مثل ما فعلت الجامعات الغربية، وليس مثل ما حصل في بعض الدول العربية حيث كان التحقيق والتأليف يتم على يد جماعة ليس من أهل الاختصاص، وكان هذا في بعض المطابع التجارية حتى تجد التحقيق غير ممنهج ومليء بالأخطاء بأنواعها، فالجامعات في مختلف العصور هي الراعي الرسمي لدراسة التراث والحفاظ عليه ونشره، وأن يكون للجامعة دار نشر، وقد بدأت بعض الجامعات في جعل دور نشر خاصة بها مثل جامعة الجزائر والرياض والقاهرة...، فتحقيق التراث عندما يتم عن طريق الجامعة يكون أحسن من يحققه شخص ليس من أهل الاختصاص، ويكون غرضه الربح السريع، ودار النشر الجامعية أحسن من دار النشر التجارية، يقول الكاتب اللبناني نجيب العقيقي: "وإذا كان الناشر التجاري، لا يقدم على طبع كتاب إلا إذا حقق له الربح السريع، فإن من واجب الجامعات

¹ - الحلوجي: عبد الستار، "المخطوطات والتراث العربي"، مصدر سابق، ص 59

² - المرجع السابق، ص 62

منها، وأن يكون تعاون بين الجامعات العربية في تحقيق المخطوطات وتصويرها وتبادل النسخ والمعلومات فيما بينها، وبين المراكز والجامعات الغربية المحتفظة بالمخطوطات العربية، وتشجيع الهيئات والمراكز الحكومية ومعهد المخطوطات التابع للجامعة العربية على القيام بذلك.

ومن الغريب في الأمر أن نجد من فهرس للمخطوطات العربية واهتم بهذا الفن، كارل بروكلمان المستشرق الألماني وكتابه (تاريخ الأدب العربي) وكذلك الألماني من أصل تركي فؤاد سزجين وكتابه (تاريخ التراث العربي) وكلاهما غير عربي، وإلى الآن يعد هذان الكتابان من أهم المراجع للتعريف بالمخطوطات العربية ومكان وجودها، ويمكن أن نؤلف من هو أحسن منهما ولا نكتفي بترجمتهما والاعتماد عليهما، والحديث عن تراثنا ومخطوطاتنا كثير، والأمة العربية ينقصها خطة متكاملة المعالم والوضوح للنهوض بتراثها، وإخراجها من الفوضى التي يعاني منها، وبحث قصير مثل هذا لا يكفي أن يحيط بهذا الصرح الضخم من التراث الذي يحتاج إلى الكثير من الجهود والدراسات المخلصة للنهوض به، ومعرفة قيمته والذي كان ولا يزال دعامة أساسية من الدعامات التي قامت عليها حضارة الإنسان في العصر الحديث.

قائمة المصادر والمراجع

- أيمن: فؤاد السيد، "الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات"، الدار المصرية اللبنانية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1997م، القاهرة.
- بدوي: عبد الرحمن "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي"، ترجمة عن الأنكليزية والفرنسية والألمانية، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى 1979م، بيروت
- دياب: عبد المجيد، "تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره" دار المعارف، الطبعة الثانية 1993م، القاهرة.
- التونجي: محمد، "المنهاج في تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات" دار عالم الكتب، دمشق.
- عبد التواب: رمضان، "مناهج تحقيق التراث بين القدمى والمحدثين" مطبعة المدني، الطبعة الأولى 1985م، القاهرة.
- الحلوجي: عبد الستار، "المخطوطات والتراث العربي" الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى 2002م، القاهرة.
- الحلوجي: عبد الستار، "المخطوط العربي"، الكتاب الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية عام 1998م، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى 2002م، القاهرة.
- الحفيان: فيصل، "فن فهرسة المخطوطات، مدخل وقضايا"، معهد المخطوطات العربية، طبع 1999م، القاهرة.

- الطناحي: محمد محمود، "مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي"، مطبعة المدني، الطبعة الأولى 1984م، القاهرة.
- الطربي: مصطفى، "مقالات في علم المخطوطات"، الطبعة الأولى 2000م، الخزنة الملكية، الرباط.
- العقيقي: نجيب، "المستشرقون"، دار المعارف، الطبعة الرابعة 2006م، القاهرة.
- القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي، "صبح الأعشى وصناعة الإنشاء"، دار الكتب المصرية، طبعة 1922، القاهرة.
- كليب: فضل جميل، "المخطوطات العربية فهرستها علمياً وعملياً"، بمشاركة فؤاد عبيد وعمودأتم ومحمد بحيص، دار جرير، الطبعة الأولى 2006م، عمان، الأردن.
- المحاسني: سماء زكي، "دراسات في المخطوطات العربية"، مكتبة الملك فهد الوطنية، طبعة 1999م، الرياض.
- المنجد: صلاح الدين، "قواعد تحقيق المخطوطات العربية"، دار الكتاب الجديد، الطبعة السابعة 1987م، بيروت لبنان.
- النشار: السيد السيد، "في المخطوطات العربية"، دار الثقافة العلمية الأسكندرية، 1997م، القاهرة.
- عبد الهادي: محمد فتحي، "التراث المخطوط دليل بيبليوجرافي بالإنتاج الفكري العربي"، مركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي 2009م، الأسكندرية، مصر.
- ابوهية: عزت ياسين، "المخطوطات العربية فهرستها ومواطنها في جمهورية مصر العربية"، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة 1989م، القاهرة.
- يوسف: السيد مصطفى، "صيانة المخطوطات علماً وعملاً"، دار عالم الكتب، الطبعة الثانية 2002م، القاهرة.

- المواقع الإلكترونية:

- موقع اسلام ويب: <http://www.islamweb.net>
- موقع جامعة الإسكندرية، المكتبة المركزية: <http://www.auclib.edu.e>
- موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف: <http://www.qurancomplex.org>
- موقع معهد المخطوطات العربية: <http://www.makhtutat.net>
- موقع الدكتور يوسف زيدان للتراث والمخطوطات: <http://www.ziedan.com>